التّناسب القصصيّ في القرآن الكريم (دراسة في ضوء وحدة النّسق)
– سورة "ص" أنموذجا –

The proportionality of storytelling in the Holy Quran. study of the Them Unit "Surat Sad as a case study"

أ. يس خير النّاس♦°

أ. قاسم حاج محمّد♣

تاريخ الاستلام: 09-05-2021 تاريخ القبــول: 22-09-2021

ملخّص: تهدف الدّراسة إلى تبيان نوع من العلائق المرتبطة بالقرآن الكريم والمتعلّقة بعلم المناسبات، ووحدة نسق السّورة من خلال دراسة قصص سورة "ص" ومحاولة تبيان ما يتعلّق بتناسب القصّة مع محور السّورة، وما يكتنفه هذا البناء من أسرار وخصائص فنّيّة وبلاغيّة، فدراسة أسلوب القرآن الكريم وتبيان إعجازه وما يختصّ به عن أساليب التّأليف البشري، لا يزال بحاجة إلى مزيد دراسة وعناية، وتأتي هذه الدّراسة خطوة في هذا السّياق. والاجابة على إشكاليّة البحث المتعلّقة بالأسئلة الآتيّة: لمّا كان الأسلوب القصصي الغالب في سورة "ص" فما هو دور القصّة في إبراز وحدة نسق السّورة؟ ما سرّ التّناسب بين قصص داود وسليمان وأيوب وخلق آدم عليهم السّلام؟ وما علاقة هذا التّناسب بوحدة نسق السّورة؟، حيث اقتضت طبيعة البحث الالتّزام بالمنهج الاستقرائي بتتبّع معاني الآيات في التّفاسير ما أمكن ذلك، إضافة إلى المنهج التّحليلي لبيان التّناسب القصصي والكشف عن وحدة النّسق والرّبط بينها؛ وكان من نتائج البحث، أنّ الخصومة بين التّوحيد والشّرك كان عنوان وحدة النّسق في السّورة، وكانت علاقة التّناسب القصصي به ظاهرة من خلال الابتلاءات التي تعرّض لها الأنبياء، ليتأسّى

♦جامعة غرداية ,الجزائر، البريد الإلكتروني:khirennas2015@gmail.com, ALGÉRIE (المؤلف المرسل)

♣جامعة غرداية، الجزائر، البريد الإلكتروني:hadjkacem47@gmail.com .

بهم الرّسّول ﷺ في ظلّ الخصومة الحاصلة بينه وبين كفّار قريش، ويعلم بأنّ عاقبة أمره الفرج مثلما كانت نتيجة صبر إخوانه الأنبياء عليهم السّلام.

الكلمات المفتاحيّة: علم المناسبة –القصص القرآني – وحدة النّسق –سورة ص.

Abstract: The present study sheds the light on one of Holy Quran's stories aspect, which is related to events and the theme unit through the study of stories revealed in "Surat Sad" and an attempt to reveal what relates the story with the essential unit of the Surat. An analyses of the structure, its secret and its rhetoric and artistic properties. The study of style's Quran, the miracles of Quran, and all what is related to the style of human being component are still in need to more study. The present research seeks to answer the following questions: why does the storytelling style is dominant in "surat Sad"? and what is the role of the story in revealing the unity of the theme of the Surat through all verses? What is the secret of proportionality between the stories of the prophets David, Sulaiman, Ayoub and Adam peace be upon them? Finally, what is the relation of this proportionality with the unit of the Surat' theme?

Due to the nature of the research, we had to follow the inductive approach through analyzing the meaning of verses in addition to the analytical approach to reveal the occasion of the stories and the unit of the theme and the relation between both of them. The study reveals that the antagonism was dominant as the theme' unit of the Surat, the relationship of events are clear throughout the trials to which the prophets were exposed to. The study reveals also that all those trials and events will be a lesson for the prophet Mohammed peace be upon Him to be the path during his process in solving all the problems and trials with Infidels (Kuffar) of Quraich even though he truly knows that all the issues will release as the problems that his brothers, the prophets peace be upon them that were released after a long patience.

Keywords: The proportionality of storytelling - The Holy Quran- Unit of Surat-**.**

مقدّمة: الحمد لله الكريم المنان، منزل القرآن، ومحكم آياته ومفصّله على غير معهود العرب من البيان؛ وبعد: فإنّ هذا البحث يسعى لإبراز نوع من العلائق المتعلّقة بالقرآن الكريم وبالتّحديد في سورة منه، والتي تُبرز وحدة وتماسك أجزاء السّورة الواحدة التي يحسبها القارئ من أوّل وهلة أنّها قطع مشتتّة لا رابط بينها، وإذا أمعن النّظر فيها وجدها كالبنيان المرصوص وبالنّظر إلى كتب القدامى والمُحدثين نجد أنّهم تناولوا هذا الجانب في علمين من علوم القرآن هما: علم المناسبات الذي يُعنى بأوجه الارتباط بين الآي والسّور، وعلم مقاصد السّور الذي يُعنى ببيان مقاصد السّورة والمحور العام الذي تدور عليه جميع معاني آياتها، فوحدة النّسق من أبرز خصائص أسلوب القرآن ومن دلائل إعجازه، وقد أشار إلى ذلك بعض العلماء منهم سيد قطب حيث قال: "إنّ لكلّ سورة من سور القرآن شخصيّة مميزة شخصيّة لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حيّ مميّز الملامح والسّمات والأنفاس ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسيّة مشدودة إلى محور خاص ولها جو خاصّ يظلّل موضوعاتها كلّها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقّق التّناسق بينها وفق هذا الجو". وقد كان لعنصر القصص الأثر البارز لبيان ذلك النّسق، وهذه الدّراسة تسعى لتجليّة هذا المفهوم من خلال دراسة سورة "ص"، حيث نجد القصّة أخذت حيّزا معتبرا من السّورة من خلال قصص داود وسليمان وأيوب وآدم عليهم أفضل السّلام، وتهدف لبيان التّناسب بينها ومعرفة موقعها من وحدة النّسق في السّورة الكريمة، فما التّناسب الحاصل بين قصص السّورة، وما علاقة هذا التّناسب بوحدة نسق السّورة؟

-مفهوم التّناسب القصصي ووحدة النّسق:

1. مفهوم التّناسب القصصي لغة واصطلاحا: يحاول الباحث من خلال هذا المبحث تبسيط المعاني المتعلّقة بمصطلحات الدّراسة من بيان لمفهوم التّناسب القصصي وكذا وحدة النّسق، وقبل الولوج إلى هاذين المفهومين ينبغي التّعريف بعلم المناسبات عند علماء القرآن من حيث اللّغة والاصطلاح.

أ/ التّناسب لغة واصطلاحا:

لغة: التّناسب يرجع في الأصل إلى الجذر " نَسَبَ " وهو "اتّصال شيء بشيء ... والنّسيبُ الطّريق المستقيم لاتّصال بعضه ببعض."[1]، ويقول ابن منظور: النّسَب: نسب القرابات وهو واحد الأنساب...تقول: ليس بينهما مُنَاسبة أي مشاكلة..."[2].

من خلال التّعريفين يمكن أن نخلُص إلى أنّ التّناسب في أصله يرجع إلى الاتّصال القريب والاشتراك والمشاكلة؛ وهو ما نبّه إليه الزّركشي بأنّ المناسبة في اللّغة المقاربة وفلان يُناسب فلانا يقرُب منه ويشاكله، ومنه النّسِيبُ الذي هو القريب المتّصل".[3]

اصطلاحا: يعتبر التّناسب عند علماء القرآن علما في غاية النّفاسة، وهو علم شريف تُحرز به العقول ويُعرف به قدر القائل فيما يقول."[4] لذلك فإنّ أغلب التّعريفات لعلم المناسبات تُشير إلى معنى الارتباط الوثيق الموجود بين دفّتي المصحف والذي أعجز البشر بأن يأتوا بكتاب مثله في النّظم المحكم والتّرتيب المتناسق، فذلك متّصل أبدا بالتّأمّل العميق والتّدبّر الأمثل؛ فنجد الامام الزّركشي يعرّفه بأنّه "أمر معقول إذا عرض على العقول تلقّته بالقبول وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعُها والله أعلم إلى معنى ما ربط بينهما عام أو خاصّ عقلي أو حسّي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التّلازم الذّهني كالسّبب والمسبّب والعلّة والمعلول والنّظيرين والضّدّين ونحوه.."[5] فطريق معرفة المناسبة وقرائنها إذا من حيث العام والخاص وكذا العقليّة والحسّيّة ممّا يدخل في باب الاجتهاد العقلي والذّوق البلاغي الذي عبّر عنه البقاعي بالسّرّ البلاغي وبيّن بأنّ موضوع علم المناسبة: "أجزاء الشّيء المطلوب علم مناسبته من حيث التّرتيب، وثمرته: الاطّلاع على الرّتبة التي يستحقّها الجزء بسبب ماله بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتّعلّق الذي هو كلحمة النّسب."[6] فالإمام البقاعي بهذا التّعريف يربط بين المعنى اللّغوي والاصطلاحي بتأكيد شدّة ارتباط الآيات المراد دراستها مع ما قبلها وما بعدها وترابط معانيها كلُحمة النّسب، وبذلك تحصل الفائدة المرجوّة من اعتبار المناسبة في بيان المعاني؛ ولا يتوقّف ذلك عند الآيات بل يتعدّاه إلى معرفة مقاصد السّور، بعد استيفاء النّظر فيها من مقدّمتها إلى خاتمتها ولا يخفى على ذي لبّ ما للقصّة القرآنيّة من أثر بالغ في تجليّة هذا التّناسق ببين أجزاء السّورة الواحدة، خاصّة تلك التي يُظنّ أنّها من المكرّرات ثمّ نجدها غير ذلك لأنّ "كلّ سورة أُعيدت فيها قصّة فلمعنى أدعى في تلك السّورة استدلّ عليه بتلك القصّة غير المعنى

الذي سيقت له في السّورة السّابقة...وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها."[7] فالمعاني الجديدة التي يكشفها التّناسق بين معاني القصّة ومقاصد السّورة يكون سبيلا من سبل معرفة وحدة النّسق في السّورة الواحدة؛ وهذا ما يمكن أن نتعرّف عليه في المبحث الموالي والمتعلّق ببيان معنى التّناسب القصصي ووحدة النّسق في حدود ما تسمح به ضوابط الدّراسة.

ب/ مفهوم التّناسب القصصي: القصّة في السّورة القرآنيّة قد تشغل سورة بأكملها مثل قصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام وقد تكون آيات متتابعة فيها وقد تُشكّل الآيات في السّورة الواحدة عددا من القصص مثل سورة " ص "، ويُقصد بالتّناسب القصصي ما تحمله هذه القصص من معان مرتبطة بعضها ببعض، ويتّصل بالمعنى الاصطلاحي للتّناسب في تعدّد هذه الرّوابط من عام وخاص وعقلي وحسّي إلى غير ذلك ممّا ذكره الامام الزّركشي.

ج/ مفهوم وحدة النّسق: إنّ الاهتمام بوحدة السّورة ودراسة ما فيها من تناسق في القرآن كان تسديدا لعلم التّفسير وتجديدا لطرق تجليّة معاني آيات القرآن الكريم، ودراسة أسرار النّظم في سوره، حيث ظهرت تسميّات متعدّدة تصبّ في هذا المجال من قبيل: الوحدة الموضوعيّة للسّورة وسياق السّورة، ومحور السّورة...إلاّ أنّ مصطلح وحدة النّسق أدلّ على التّكامل والتّناسب من النّاحيتين المعنويّة والبيانيّة، لأنّه يشمل بعض معاني تلك المصطلحات مثل اشتراكه مع الوحدة الموضوعيّة في بيان موضوعات السّورة التي تُفضي إلى محور السّورة العام، ومع السّياق في اعتبار السّباق واللّحاق، وقد عرّف فاروق الحمداوي النّسق بأنّه: التّحام موضوعات السّورة القرآنيّة وتماسك بنائها واتّساق معانيها لخدمة مقصود واحد. وأعني بالنّسق بناء السّورة الذي يتّسم بالتّناسق بين أجزائه والتّرابط المعنوي بين آياته".[8] وقد اختار الباحث هذا المصطلح (وحدة النّسق) دون غيره للتّفرقة بينه وبين الوحدة الموضوعيّة التي تعتمد على بيان موضوع واحد[9] حيث يعرف بأنّه: البحث عن القضايا التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصّة تتعلّق بالموضوع العام الذي نبحثه لنحقّق الهدف."[10] والنّظر إلى تماسك السّورة في القرآن الكريم نجد أنّ معظمها متعدّدة الموضوعات ولكن هذا التّعدّد يوصل إلى هدف وغرض محوريّ واحد دون تنافر أو تفكّك.

-التّناسب القصصي في سورة ص: يحاول الباحث من خلال عناصر هذا المبحث تبيان التّناسب المعنوي بين قصص السّورة الكريمة، بحيث يكون التّمهيد للسورة أوّلا، ولوحدة النّسق ثانيا ثمّ يليه تناول كلّ قصّة بالدّراسة ثمّ تذييل المبحث بإبراز أوجه التّناسب مقرونا بوحدة النّسق للسّورة.

1 . بين يدي سورة "ص": تعتبر سورة صاد من السّور المكيّة، وقد حكى بعضهم أنّها مدنيّة إلاّ أنّ ذلك خلاف حكاية جماعة الإجماع كما قال السّيوطي[11] أمّا عن تسميّة السّورة فقد نقل السّيوطي عن السّخاوي في كتاب: جمال القرّاء أنّ سورة ص تسمّى سورة داود[12] فيما ذكر ابن عاشور أنّها "سمّيت في المصاحف وكتب التّفسير وكتب السّنة والآثار عن السّلف «سورة صاد» كما ينطق باسم حرف الصّاد تسميّة لها بأوّل كلمة منها هي صاد.[13] نزلت بعد سورة القمر وقبل سورة الأعراف[14].

فالمحصّلة إذا من هذه المقدّمات أنّ السّورة مكّيّة وتُعرف بثلاث تسميات: ص صاد وسورة داود، والأخيرة ربّما لذكر داود عليه السّلام فيها والتّفصيل في قصّته أكثر من غيره، وعن ترتيبها في النّزول أنّها توسّطت سورتي القمر والأعراف.

2 . نسق السّورة: من خلال دراسة سورة " ص " تبيّن للباحث بأنّ نسق السّورة يتمحور حول الخصومة بين التّوحيد والشّرك وبين الحقّ والباطل استنادا إلى أقوال أهل العلم والدّلائل الآتيّة: من العوامل المهمة في دراسة نسق السّورة النّظر إلى افتتاحيّة السّورة، فالسّورة افتُتحت بحرف من الحروف المقطّعة "ص"، والسّور التي تكون مفتتحة بهذا الشّكل من شأنها أن تُفصح عن بعض أسرار السّورة، وذلك بالنّظر إلى أنّ السّورة تكون مبنيّة على كلمة ذلك الحرف فقد ذكر الزّركشي في برهانه عن سورة "ص" أنّها اشتملت على خصومات متعدّدة أوّلها خصومة الكفّار مع النّبيّ ﷺ وقولهم: ﴿ **اَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـهًا وَاحِدًا** ﴾ [ص: 5] إلى آخر كلامهم ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النّار ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدّرجات والكفّارات ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسّجود ثم اختصامه ثانيا في شأن بَنيه وحِلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.[15] وفي ملحظ مهمّ يذكر الأستاذ أحمد نوفل بأنّ السّور المبدوءة بحرف ص تكون الإشارة فيها إلى القصص والصّبر والخصومة.[16] وهذا ما ظهر بالفعل في هذه السّورة الكريمة.

ومن الأمور المعتبرة المهمّة في معرفة نسق السّورة التّطرّق إلى سبب نزولها فقد ثبت أنّ السّورة ممّا نزل في مكّة والرّسول ﷺ في أخذ وردّ مع كُفّار قريش، فقد روى التّرمذي عن ابن عبّاس قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش، وجاءه ﷺ وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: "إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزيّة". قال: كلمة واحدة؟ قال: "كلمة واحدة" قال: "يا عم يقولوا: لا إله إلا الله " فقالوا: إلها واحدا ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. قال: فنزل فيهم القرآن:﴿**ص والقرآن ذي الذّكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق**﴾ [ص: 2]– إلى قوله – ﴿**ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق**﴾ [ص: 7]. قال: حديث حسن صحيح[17] فالرّواية تشير إلى خصام بين كفّار قريش والنّبيّ ﷺ واحتكموا في ذلك إلى أبي طالب "فهذا نصّ في أن نزولها في آخر حياة أبي طالب وهذا المرض مرض موته كما في ابن عطيّة فتكون هذه السّورة قد نزلت في سنة ثلاث قبل الهجرة [18]. فمن خلال رواية التّرمذي وما ذكره ابن عاشور عن تاريخ نزول السّورة نستحضر الجوّ العام لنزولها في مشهد من الخصومة الشّديدة بين الحقّ والباطل بين إصرار الكفّار على تكذيب النّبيّ عليه السّلام بشتّى الوسائل والطّرق وبين صبره عليه السّلام على أذاهم، وهو في السّنوات الأخيرة من المرحلة المكيّة وقد اشتدّ أذى الكفّار عليه وعلى أتباعه فما له إلاّ الصّبر سلاحا لمواجهتهم، لذلك نجد أنّ الغرض المحوريّ الثّاني للسّورة هو الصّبر والتّأسّي بالرّسل الذين ابتلوا في مسيرة الدّعوة إلى التّوحيد من قبله كداود وأيوب وغيرهم وما جُوزُوا عن صبرهم[19] بإكرام الله لهم ومنّ عليهم.

وقد أشار الأستاذ المثنّى عبد الفتّاح إلى هذا الرّأي وقال بعد وقفة متدبّرة طويلة مع السّورة بأنّها تتحدّث عن لون خاص من ألوان الخصومة، وهي الخصومة بين أفراد المجتمع المسلم من جهة والخصومة في القضاء من جهة أخرى، وهذا بعد أن بنى رأيه على أنّ الخصومة وقت إذ بين الشّرك والتّوحيد وما قرّره امتداد له[20].

وللسّورة أيضا محاور أخرى ذكرها العلماء والدّارسون منها أنّ السّورة تعالج موضوعات السّور المكيّة من التّوحيد وقضيّة الوحي إلى النّبيّ ﷺ والحساب في الآخرة وتكذيب المشركين للرّسول عليه السّلام[21].

وهناك من اعتبر بأنّ السّورة تميّزت بتربيّة النّبيّ ﷺ على الصّبر وعلى التّذكير بالقرآن لأنّه على الحقّ، كما يصبر قومه على الباطل[22]، ولكنّ الباحث رجح أن يكون محور الخصومة بين التّوحيد والشّرك وبين الحقّ والباطل هو محور السّورة للأدلّة التي أشرنا إليها من قبل.

أ/ مناسبتها لما قبلها وما بعدها: سورة صاد في ترتيب المصحف جاءت بعد سورة الصّافات وفيه من الوشائج والرّوابط ما ذكره علماء التّفسير من عدة وجوه منها:

_ السّورة امتداد لما ذكر في الصّافات من أن جند الله هم الغالبون –وإن رئي أنّهم ضعفاء وإن تأخّر نصرهم –غلبة آخرها سلامة للفريقين[23]؛

_ أنّها كالمتممة لما قبلها من حيث إنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء عليهم السّلام كداود وسليمان، ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنّهم قالوا﴿ **لَوَ اَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الاَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[الصّافات: 168–169] وأنّهم كفروا بالذّكر لما جاءهم بدأ عز وجل في هذه السّورة بالقرآن ذي الذّكر وفصل ما أجمل هناك من كفرهم"[24]؛

_ ما ذكره صاحب الأساس من مظاهر التّكامل بين السّورتين وذلك في أنّ سورة الصّافات عرضت في سياقها الرّئيسي موضوع التّوحيد، وتحدثت عن الرّسل، وفي سورة "ص" نرى استبعاد الكافرين لموضوع التّوحيد، وتكذيبهم للرسل عليهم الصّلاة والسّلام[25]؛

أمّا المناسبة بينها وبين سورة الزّمر: ذكر الامام الألوسي في مناسبة قصّة آدم مع ما ذكر منها في الزّمر أنّ الله تعالى ذكر آخر ص قصة خلق آدم وذكر في صدر الزّمر قصة خلق زوجه منه وخلق النّاس كلهم منه وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق ثم ذكر أنّهم ميتون ثم ذكر سبحانه القيامة والحساب والجنة والنّار وختم بقوله سبحانه:﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الزّمر: 75] فذكر جل شأنه أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد متصلا بخلق آدم عليه السّلام المذكور في سورة ص."[26]

3 . التّناسب القصصي في السّورة: قبل الولوج إلى دراسة قصص الأنبياء في السّورة أوجز ما ورد فيها مما هو متعلّق بالقصص، فقد ابتدأت السّورة بذكر كلّ من

قوم نوح وعاد، فرعون، ثمود، قوم لوط، وأصحاب ليكة في معرض الذّمّ لتكذيبهم الرّسل فقال تعالى:﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الاَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةَ أُوْلَئِكَ الاَحْزَابُ﴾ [ص: 12-13]، وذكر كل من إبراهيم، إسحاق يعقوب، إسماعيل، اليسع، وذي الكفل، في معرض المدح، وعن داود وسليمان وأيوب وآدم عليهم السّلام فقد ذُكرت بعض المواقف لهم وسيحاول الباحث من خلال هذا المبحث دراستها مفصّلة بعرض كلّ قصّة على حدة بالتّرتيب الذي ذُكر في السّورة الكريمة، فتكون قصص داود وسليمان وأيوب متّصلة وقصّة آدم منفصلة، ومن ثمّ التّطرّق إلى دراسة ما بينها من تناسب وترابط.

أ/ سمات العرض القصصي للشّخصيّات الثّلاث:

من خلال النّظر إلى أحداث قصص كلّ من داود وسليمان وأيوب عليهم السّلام نجد أنّ هناك سمات خاصّة تشكّل الطّابع العام لهذه القصص حتّى لا نكاد نجد بينها نشوزا أو إعراضا ونخالها قصّة واحدة وهذا من أسرار وإعجاز النّظم القرآني، وقد حاول الباحث جمع تلك السّمات الخاصّة، حيث تبيّن أنّها تنقسم إلى ثلاث كالآتي:

1 . ذكر ما تتميّز به هذه الشّخصيّات من صفات محمودة.

2 . عرض قضيّة الابتلاء التي حصلت لكلّ واحد منهم.

3 . الانعام والتّفضّل عليهم بعد صبرهم على الابتلاء والاختبار.

وعلى ضوء هذه السّمات نحاول تفصيل الحديث عن كلّ سمة على حدة.

- ذكر ما تتميّز به هذه الشّخصيّات من صفات محمودة:

أوّل قصّة ذُكرت في السّورة من حيث التّرتيب هي قصّة داود عليه السّلام، وقد ذُكر من صفاته وسماته الشّخصيّة المميّزة له: عبوديّته لله تعالى وكثرة أوبته ورجوعه إليه وكثرة تسبيحه وإكرام الله له بتسخير الجبال والطّير يسبّحن بتسبيحه بالعشيّ والاشراق والنّبوءة وفصل الخطاب، قال تعالى:﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الاَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ اِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالاِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾ [ص: 17-20]

أمّا سيدنا سليمان فقد ذُكر من صفاته وسماته الشّخصيّة: عبوديّته لله تعالى، وكثرة أوبته ورجوعه إلى الله، قال تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾

وعن سيّدنا أيّوب عليه السّلام من صفاته وسماته الشّخصيّة: عبوديّته لله تعالى وكثرة أوبته ورجوعه إلى الله، قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ...إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: 41-44] فالملاحظ على هذه السّمات لكلّ شخصيّة أنّها مشتركة في وصف الله تعالى لهم بالعبوديّة والأوبة إليه.

- قضيّة الابتلاء التي حصلت لكلّ واحد منهم:

قصّة داود عليه السّلام: ورد ذكر قصّة داود عليه السّلام في الآيات من 21 إلى 26 من السّورة الكريمة وخلاصة ما جاء فيها أنّ داود عليه السّلام كان في محرابه ففزع من الخصمين اللّذين أتياه من أعلى السّور، فطمأناه بأنّهما جاءا ليحكم بينهما في خصومتهما وذلك بأنّ أحدهما كان له تسع وتسعون نعجة والآخر له نعجة واحدة فتكلّم صاحب النّعجة الواحدة وقال بأنّ أخاه طلب منه أن يملّكه نعجته ويضمّها إلى نعاجه في أسلوب به نوع من العزّة والتّطاول والظّلم والقهر، فنطق داود بحكمه وقال له بأنّ أخاك قد ظلمك بطلب ضم نعجتك الواحدة إلى نعاجه الكثيرة، ثمّ ختم كلامه بوعظهما وإرشادهما بأنّ يتّبعا عادة الخلطاء الصّالحين ويبتعدا عن الظّلم والاعتداء.[27]

هذا ملخص ما كان من قصّة داود عليه السّلام مع الخصمين وقد حاولنا قدر الإمكان التّقيّد بما ورد في النّصّ القرآني بعيدا عن الإسرائيليات التي رُويت في أحداثها وتناقلها بعض المفسّرين في كتبهم " فقد كانت أكبر مساحة وأشدّ غرابة وأكثر نكارة فيما يتّصل بداود وسليمان عليهما الصّلاة والسّلام"[28] أمّا عن المقصد العام للقصّة فقد بيّنت أحداث القصّة أنّها جاءت في سياق بيان فتنة داود عليه السّلام وبيان ذلك من عدّة وجوه:

أ/ تحدّثت الآيات قبل ذكر القصّة عن صفات مدح لداود عليه السّلام من عبوديّته لله تعالى وكثرة أوبته ورجوعه إليه وكثرة تسبيحه وإكرام الله له بتسخير الجبال والطّير يسبّحن بتسبيحه بالعشيّ والاشراق، والنّبوءة وفصل الخطاب، ولم تكن هناك أدنى إشارة إلى عتاب أو تنقّص من شخص داود عليه السّلام عكس ما ورد في بعض الإسرائيليا[29] بل كان التّوجيه إلى النّبيّ ﷺ بأن يلزم الصّبر اقتداء بأخيه داود عليه السّلام.

ب/ فتنة داود عليه السّلام أنّه استعجل النّطق بالحكم دون السّماع للطّرف الثّاني في القضيّة وهو ما رجّحه بعض المفسّرين منهم البقاعي وسيد قطب [30]وهو ما يتّفق مع سياق الآيات وهذا مزيد بيان على ذلك:

_ ما ذكرنا من قبل من أنّ الآيات السّابقة للقصّة جاءت في سياق المدح لداود عليه السّلام والآيات اللاّحقة كذلك، يقول ابن عاشور: واعلم أنّ سوق هذا النّبأ عقب التّنويه بداود عليه السّلام ليس إلا تتميما للتنويه به لدفع ما قد يتوهم أنّه ينقض ما ذكر من فضائله ... فأريد تبيان المقدار الصّادق منها وتذييله بأن ما صدر عن داود عليه السّلام يستوجب العتاب ولا يقتضي العقاب."[31]

_ قوله تعالى: ﴿ **وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ** ﴾ [ص: 24] فالتّعبير القرآني هنا صريح بأنّ في القضيّة اختبار لداود عليه السّلام، وأياّ كان جنس هذين الخصمين سواء كانا مَلَكين أم غيره فإنّ الذي يوصلنا إلى المعنى المقصود أنّ داود عليه السّلام تفطّن إلى أنّه تعالى "اختبره بهذه الحكومة في الأحكام التي يلزم الملوك مثلها ليتبيّن أمرهم وعلم أنّه بادر إلى نسبة المدّعى عليه إلى أنّه ظُلْمٌ من قبل أن يسمع كلامه ويسأله المدعي الحكم، فعاتبه الله على ذلك، والأنبياء عليهم السّلام لعلوّ مقاماتهم يُعاتبون على مثل هذا وهو من قصر الموصوف على الصّفة قلبا، أي أنّ القصّة مقصورة على الفتنة لا تعلّق لها بالخصومة" [32] ثمّ استغفر ربّه وخرّ راكعا وأناب.

_ التّعقيب القرآني على القصّة يحدّد التّوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين النّاس: ﴿**يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الذينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص: 26] فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين النّاس بالحق، وعدم اتباع الهوى[33].

قصّة سليمان عليه السّلام: ورد ذكر قصّة سليمان عليه السّلام في السّورة في الآيات من 30 إلى 40 وقد كان الحديث فيها عن واقعتين الأولى عن الصّافنات الجياد في قوله تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّيَ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسّوقِ وَالاَعْنَاقِ**﴾ [ص: 30–33] والثّانيّة المتعلّقة بالفتنة

من قوله الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ**﴾ [ص: 34]، ونبدأ الحديث عن الأخيرة لأنّنا في معرض الحديث عن الفتنة ثمّ نُعرّج إلى الواقعة الثّانيّة، فقد جاء في تفسير معنى الفتنة في الآية أقوال كثيرة منها ما كان من الإسرائيليات ومنها ما يستند إلى صحيح السّنّة، فما كان من الرّوايات الإسرائيليّة فقد ردّها ابن كثير بعد أن عرضها في تفسيره وقال في رواية ابن عبّاس التي تُفسّر الجسد بالشّيطان الذي سُلّط على سليمان: "إسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوي، ولكن الظّاهر أنّه إنّما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما إن صح عنه من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصّلاة والسّلام فالظّاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في هذا السّياق منكرات."[34] أمّا الرّواية الصّحيحة فهو ما جاء في البخاري ومسلم والتي اعتمدها كثير من المفسّرين: "أنّ سليمان قال: لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة كلّهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعا لم تحمل منهم إلاّ امرأة واحدة جاءت بشق رجل. قال رسول الله: وأيم الله، والذي نفس محمّد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون."[35] وهذا الحديث يُحتمل أن يكون تأويلا للآية، ولكنّنا نجد البخاري لا يذكره في تفسير سورة "ص" مع أنه ذكر روايات في تفسير آيات من هذه السّورة، ولكّنه ذكر هذا الحديث في كتاب الجهاد والأنبياء ...لذلك رجّح الشّيخ فضل عباس أن لا يكون الحديث تفسيرا للآية الكريمة.[36]

وللعماء تفسيرات أخرى لهذه الآية منها ما ذكره الرّازي في تفسيره:

_ فتنة سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، وألقينا على كرسيه منه جسدا وذلك لشدة المرض. والعرب تقول في الضّعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح ثم أناب أي رجع إلى حال الصّحة؛

_ رأي الرّازي أنّ سليمان ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضّعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف، وأعاده إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب."[37]

ورأي آخر لفضل عبّاس والذي رجّح أن تكون فتنة سليمان في ابن له كان يُحبّه فأخذه الله فجيء به على كرسّي وحزن عليه حزنا كثيرا وكأنّما كان ينتظر له مستقبلا مشرقا، فكان منه ما كان بعد ذلك،﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي**﴾ فحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين والله أعلم بما يُنزّل.[38] هذه بعض الوجوه المُحتملة في تفسير معنى الفتنة التي تعرّض لها سليمان عليه السّلام وقد أطلت الحديث فيها لاختلاف علمائنا في أخبارها وكثرة الاسرائيليات حولها والتي لا ينبغي الرّكون إليها بل الواجب غربلتها وإلقائها على جانب الطّريق والاعتماد على النّص القرآني. أمّا عن الواقعة الأخرى لسليمان عليه السّلام في السّورة متعلّق بما ذُكر في الآيات من 30 إلى 32، وخلاصة ما جاء فيها أنّه عليه السّلام عُرضت عليه خيله الصّافنات الجياد في وقت العشيّ ما بين العصر وغروب الشّمس، ومع تتابع مجموعاتها أمامه كان يردّد هذه العبارة: ﴿ **إِنِّيَ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي** ﴾ بمعنى أنّي لا أحبها لأجل الدّنيا ونصيب النّفس، وإنّما أحبها لأمر الله وطلب تقويّة دينه، ثمّ أمر ساسة الخيل ومروّضيها بعد أن غابت عن بصره بأن يردوها عليه فلمّا عادت طفق يمسح بيديه سوقها وأعناقها، تكريما لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو."[39] قصّة أيّوب عليه السّلام: خلاصة ما جاء فيها أنّ سيّدنا أيّوب عليه السّلام ابتُلي بمرض وببعض المصائب فصبر وتضرّع إلى الله فهداه ومنّ عليه بالشّفاء.

فالابتلاء الذي حلّ بأيّوب عليه السّلام كان في جسده فصبر وتوكّل على الله حتّى منّ عليه بالشّفاء.

- الانعام والتّفضّل عليهم بعد صبرهم على الابتلاء والاختبار

بعد أن عرفنا الفتنة والابتلاء الذي خضع له كل من داود وسليمان وأيوب عليهم السّلام نعرّج إلى الإفراجة التي حصلت لهم وكيف نجحوا في هذا الابتلاء، فسيّدنا داود عليه السّلام لمّا علم بأمر الابتلاء استغفر وخرّ راكعا وأناب، ثمّ جاءه الإكرام من الله تعالى ﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَئَابٍ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ** ﴾ [ص: 25-26] أي صفحنا عنه وذكّرناه بنعمة المُلْك ووعظناه، فجمع له بهذا تنويها بشأنه وإرشادا للواجب."[40] وسيّدنا سليمان عليه السّلام أناب إلى ربّه ورجع، وطلب المغفرة واتّجه إلى الله بالدّعاء ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ**

يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيَ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الاَصْفَادِ هَذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ اَوَ اَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ وقد استجاب له الله فأعطاه فوق الملك المعهود مُلكا خاصًّا لا يتكرّر من تسخير الرّيح له، والشّياطين لتبني له ما يشاء، وتغوص له في البحر والأرض في طلب ما يشاء، وزيادة في الإكرام والمنّة أنّ له عند ربّه قربى في الدّنيا وحسن مآب في الآخرة، وتلك درجة عظيمة من الرّعاية والرّضى والإنعام والتّكريم[41] وعن أيّوب عليه السّلام قال تعالى عنه: ﴿ **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الاَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ اِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: 41-44] فقد تضرّع إلى الله لكشف ما به من ضرّ فكان من كرم الله أن أنعم عليه بجبر حاله، فقد ظهر في صبره ما كان في علم الله منه[42]، فقد وصفه الله تعالى بأنّه نعم العبد إنّه أوّاب وهو نفس وصف سليمان عليه السّلام، "وكان الثّناء عليهما متماثلا لاستوائهما في الأوبة وإن اختلفت الدّواعي. قال سفيان: أثنى الله على عبدين ابتليا: أحدهما صابر، والآخر شاكر، ثناء واحدا. فقال لأيوب ولسليمان نعم العبد إنّه أوّاب.[43] هكذا كانت الابتلاءات التي حصلت لكلّ واحد من هؤلاء الأنبياء فصبروا وفوّضوا أمرهم إلى الله وأنابوا إليه فمنّ عليهم بفضله وكرمه. قصّة آدم عليه السّلام: وردت قصّة خلق آدم عليه السّلام في الآيات من 71 إلى 85 من السّورة الكريمة ملخّصها أنّ الله تعالى أعلم الملائكة بأنّه خالق بشرا من طين وهو آدم فإذا أتممت خلقه ونفخت فيه الرّوح فاسجدوا إكراما له وإعظاما، فامتثل الملائكة كلّهم إلاّ إبليس استكبر واستنكف عن السّجود وخاصم ربّه عزّ وجلّ فيه وادّعى أنّه خير من آدم، فكفر بذلك، فأبعده الله وطرده عن باب رحمته، فسأل الله النّظِرَةَ إلى يوم البعث، فأنظره الحليم إلى يوم الوقت المعلوم، ثمّ قال فبعزّتك لأغوينّ بني آدم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين، فقال تعالى: أنا الحق والحقّ أقول لأملأنّ جهنّم منك ومن أتباعك.[44] السّياق الذي وردت فيه القصّة: الملاحظ على قصص آدم في القرآن الكريم أنّها تُذكر مع غيرها من قصص الأنبياء في السّورة الواحدة وسورة "ص" مثال على ذلك ولكن مع ذلك لا نجد قصّة آدم تُذكر مع هذه القصص

في ساق واحد وسرد واحد، بل يُفصل بينها وبين غيرها من هذا القصص، فقد تُذكر متأخّرة كما في سورة "طه" وسورة "ص" لأنّ الغرض والهدف من ذكر قصص الأنبياء عليهم السّلام مُغاير للغرض والهدف الذي تُذكر من أجله قصّة آدم عليه السّلام، ومن بديع نظم القرآن وعجيب أسلوبه أن نرى الفصل بينها وبين غيرها يطول ويقصُر نتيجة لقرب هذا الغرض أو بُعده[45] وفي سورة "ص" نجد أنّ هذا الفصل يقصُر، فالقصص الذي ذُكر قبل قصّة آدم هي قصص داود وسليمان وأيوب عليهم السّلام وقد رأينا ما ذُكر فيها من إكرام وفضل من الله على أنبيائه بعد الابتلاءات التي حصلت لكلّ واحد منهم وهذا ليس ببعيد عما أكرم الله به آدم عليه السّلام من إسجاد الملائكة له، وهذا من بديع النّظم والتّناسق القصصي في السّورة الكريمة؛ أمّا المقصود من سوق قصّة آدم في السّورة هو الاتّعاظ بكبر إبليس.[46] ولمّا كان من أغراض السّورة ما كان من تكبّر المشركين في قبول الحقّ وتكذيبهم للرّسول ﷺ وأنّهم في عزّة وشقاق بيّن المولى تعالى أنّ مانع إبليس من السّجود الكِبر فكما استكبرتم أيّها الكفرة على رسولنا، سنرفع رسولنا ﷺ كما رفعنا آدم صفيّنا عليه السّلام على من استكبر عن السّجود له ونجعله خليفة هذا الوجود كما جعلنا آدم عليه السّلام.[47] فاستكبار المشركين واستنكافهم عن اتّباع الحقّ حسدا وبغضا مثيل استكبار إبليس عن أمر الله، وحجّة إبليس كحجّتهم الواهيّة المبنيّة على الأنفة والاستعلاء ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ** ﴾ [ص: 76] أمّا المشركون فقالوا على لسان كبرائهم: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [الزّخرف: 31]، ففي هذه المواقف نستشعر وحدة نسق السّورة من اعتبار الخصومة بين الحقّ والباطل بين التّوحيد والشّرك فالحسد والكبر سبب طرد إبليس من رحمة الله وأعمى بصيرة المشركين واستكثروا أن يختار الله من بينهم رجلا يتيما مثل محمّد، لم يكن من عِليّة القوم وسادتهم فقالوا: ﴿**نزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا**﴾ [ص:8] فالمستقبل لهذا الدّين ولن تقف أفعال المشركين المنبثقة من نفوسكم المريضة المليئة بالكبر والحسد عائقا أمام إرادة الله تعالى على نشره في العالمين، وبذلك تتّضح لدينا العلاقة الوطيدة بين أجزاء السّورة التي تنتظم آياتها ومعانيها لتشكّل وحدة النّسق فيها.

4 . العلاقة بين التّناسب القصصي ووحدة نسق السّورة: من خلال هذا العنوان نحاول بيان ما كان من مظاهر التّناسب والتّناسق بين قصص السّورة الكريمة ونبدأ

بقصص الشّخصيّات النّبويّة الثّلاث ثمّ قصّة آدم عليه السّلام، ثمّ نُتبعه ببيان العلاقة بينها وبين وحدة نسق السّورة. بعد ما تقدّم من تفصيل في عرض السّمات الخاصّة المشتركة بين الشّخصيّات النّبويّة الثّلاث نحاول وضع خلاصة لهذا التّناسق العجيب وهذا النّظم البديع الذي يُشكّل مظهرا من مظاهر التّناسب والتّناسق بينها نُجملها فيما يلي:

_ عرضت كلّ قصّة من هذه القصص قضيّة شخصيّة لكلّ نبيّ، ولم تكن مع أقوامهم، فالقضيّة فرديّة وليست جماعيّة، فداود عليه السّلام قضيّته كانت مع الخصمين من خلال البثّ في خصومتهما، ويظهر ذلك من خلال النّطق بالحكم وعتاب الله له بأن لا يتعجّل حتّى يسمع للطّرفين، لأنّ المسؤوليّة الملقاة على عاتقه من الخلافة تتطلّب منه العدل في كلّ شيء وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه والوقوف في وجه البغي والظّلم، أمّا سليمان عليه السّلام والابتلاء الذي ابتُلي به – وإن كانت الوجوه المُحتملة في تفسير الفتنة مُتعدّدة– إلاّ أنّها تتّفق على أنّها قضيّة تخصّ شخص سليمان عليه السّلام لذلك قال بعد أن عرف (ربّ اغفر لي) على ما بدر منّي، ثمّ طلب الملك وأيّوب عليه السّلام وابتلاؤه بالضّرّ في جسده، وصبره عليه (إنا وجدناه صابرا)؛

_ اتّفقت القصص الثّلاث في أنّ كلّ شخصيّة خضعت لنوع من الاختبار والابتلاء وفي ذلك إشارة إلى النّبيّ ﷺ لأن يعتبر بحال إخوانه من الأنبياء ويصبر فسنّة الابتلاء جاريّة على الأنبياء جميعا، وإلى هذا كانت الإشارة في قوله تعالى: ﴿ **اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: 17] فقد بيّن تعالى "أن عادته الابتلاء للصالحين رفعة لدرجاتهم، فقال مسليا ومعزيا ومؤسّيا لهذا النّبي الكريم ﷺ بمن تقدمه من إخوانه الأنبياء مذكرا له بما قاسوا من الشّدائد وما لاقوا من المحن، وحاثا على العمل بأعمالهم آمرا بالتّأني والتّؤدة والحلم، ومحذرا من العجلة والتّبرم والضّجر"[48]؛

_ ما حصل للأنبياء عليهم السّلام من تفضّل ومنّ وإكرام من الله تعالى بعد صبرهم في محنهم فداود عليه السّلام أعطاه الله السّلطة والخلافة بعد فتنته بالفصل بين الخصمين ولسليمان الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد فتنة الجسد الذي أُلقي على كرسيّه ولأيّوب كشف الضّرّ وإرجاع أهله إليه، بعد صبره على ما كان به من ضرّ؛

_ المقصود من جميع هذه القصص الاعتبار،" كأن الله تعالى قال: يا محمّد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدّنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان عليهما السّلام، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أنّ أحوال الدّنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لا بد له من الصّبر على المكاره[49].

أمّا بالنّسبة لقصّة آدم عليه السّلام فالتّناسب القصصي كان من خلال تقديم نموذج امتحان واختبار من نوع آخر وهو امتحان الأخلاق والفضيلة ذلك لأنّ " إبليس كان من الملائكة ولم يكن كافرا قبل الأمر بالسّجود ولكنّه ساعتئذ أي بعد عصيانه أصبح كافرا، ولم تكن تظهر عليه نزعة الكِبر والعصيان ولكن لمّا طرأ على الملأ الذي كان إبليس معهم مخلوق جديد وأُمروا بتعظيمه كان ذلك مُوريا زناد الكِبر في نفس إبليس فنشأ عنه الكُفر بالله وعصيان أمره وهذا ناموس خُلُقي جعله الله مبدأ لهذا العالم قبل تعميره، وهو أن تكون الحوادث والمضائق معيار الأخلاق والفضيلة، فلا يحكم على نفس بتزكيّة أو ضدها إلا بعد تجربتها وملاحظة تصرفاتها عند حلول الحوادث بها [50] وهكذا كان حال إبليس مع اختبار الله له، وبالرّجوع إلى نسق السّورة العام نجد عنصر الابتلاء والاختبار متجدّد هنا، فكما رأينا الابتلاءات التي مرّ بها داود وسليمان وأيوب عليهم السّلام، نجد أيضا الابتلاء لإبليس ولكنّ النّتيجة مختلفة فشتّان بين نفوس متعلّقة بخالقها أوّابة صابرة ومطيعة، وبين نفس مستكبرة عاصيّة مليئة بالكبر والحسد، فلِلأولى المنّ والإكرام وجميل العطاء وحسن المئاب، وللأخرى الذّلّ والهوان واللّعنة والإبعاد من رحمة الله. بعد هذا العرض المفصّل للقصص الوارد في السّورة وما بينها من تناسب في المعاني قد نتساءل عن العلاقة بين هذا التّناسب وبين نسق السّورة فالحاصل أنّ التّناسب القصصي كشف بأنّ الغرض من سوق هذه النّماذج هو تسليّة النّبيّ ﷺ وتثبيته ليصبر على الحقّ قال تعالى:﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنبَآءِ الرّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ**﴾ [هود: 120] لذلك ابتدأ الحديث عن أحوالهم بقوله تعالى: ﴿ **اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الاَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: 17] بأن يصبر على أذى قومه وتكذيبهم له وهو في أشدّ المواجهة معهم ويتذكّر ويعتبر بمن سبقه من الأنبياء "فقد كان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم؛ إنّما يبين لهم ويوجههم ويبتليهم ليغفر لهم ويُكرمهم"[51] وفي ذلك طمأنة له عليه السّلام ليعلم

بأنّه في رعاية الله وحفظه، فقد شملتهم رحمة الله فكانت لهم عاقبة الفرج والمنّ والكرم وكشف الكرب، بعد الصّبر الجميل والرّضا بقضاء الله، لذلك كان العطف بعد هذه القصص الثّلاث المفصّلة على أنبياء آخرين كان الصّبر عونا لهم في تحمّل الأذى والبلاء، مثل إبراهيم الذي صبر على إلقائه في النّار وابتلائه بذبح ابنه، ويعقوب الذي صبر على فقد ولده، وغيرهم من الأنبياء الذين ابتلوا بالشّدائد في دين الله.

إذا فإنّ الغرض الذي سيقت من أجله هذه القصص نتيجة ما كان من خصومة بين النّبيّ ﷺ وكفّار قريش وما كان من مواجهة بين الحقّ والباطل بين التّوحيد والشّرك حيث أُمر الرّسول ﷺ بأن يصبر على أذاهم كما صبر الأنبياء من قبله والذين رافقتهم رعاية الله وحفظه ورحمته التي كانت عنوان المنّ والكرم وتفريج الكُرب، لذلك قال الامام الرّازي أنّ الله تعالى ذكر قصص الأنبياء في السّورة لوجهين، "الأوّل: ليصير ذلك حاملا لمحمّد ﷺ على التّأسي بالأنبياء عليهم السّلام في الصّبر على سفاهة القوم والثّاني: ليصير ذلك رادعا للكفار على الإصرار على الكفر والسّفاهة وداعيا إلى قبول الإيمان."[52] أمّا ما كان في قصّة خلق آدم فعلاقته بوحدة النّسق ظاهرة من خلال قوله تعالى على لسان نبيّه الكريم: ﴿ **مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الاَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ [ص: 69] أي "في شأن آدم عليه الصّلاة والسّلام وامتناع إبليس من السّجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه."[53] وما كان من تداعياته ممّا بدر من إبليس من تكبّر واستعلاء فكان ذلك سببا في طرده من رحمة الله، فكذلك الكفّار أن استمرّوا على ما هم عليهم من عناد وتكبّر على الحق وأهله فمآلهم ومصيرهم مثل مصير إبليس الذي يُغويهم ويُغريهم حتّى يتّبعوه في استكباره واستعلائه وتكون آخرة أمرهم النّار التي توعدّهم الله بها ﴿ **قَالَ فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [ص: 84–85] والعياذ بالله؛ إذا فالخصومة القائمة على الباطل والحسد والكبر لا تقوم لها قائمة ولن تصمد أمام قوّة الحقّ.

خاتمة: بعد هذا العرض التّفصيلي لهذه الدّراسة المتعلّقة بالتّناسب القصصي في سورة "ص" على ضوء وحدة النّسق، نوجز ما توصّلنا إليه من نتائج فيما يأتي:

_ من الأمور المهمّة في تحديد نسق السّورة النّظر إلى افتتاحيّة السّورة وجوّها العام وسبب نزولها إن وُجد، وما كُتب في علم مقاصد السّور عنها؛

_ الخصومة بين التّوحيد والشّرك وبين الحقّ والباطل كان العنوان الرّاجح لوحدة النّسق في سورة "صذ"؛

_ القصص الوارد في السّورة كانت نماذج لابتلاءات واختبارات لكلّ من داود وسليمان وأيّوب عليهم السّلام ليتأسّى الرّسّول ﷺ بهم في ظلّ الخصومة الحاصلة بينه وبين كفّار قريش، ويعلم بأنّ عاقبة أمره الفرج بمنّ الله وكرمه مثلما كانت نتيجة صبر إخوانه من الأنبياء؛

_ قصّة آدم عليه السّلام لها عرض خاصّ في السّور التي تُسرد فيها قصص أنبياء آخرين من حيث الغرض، وفي سورة "ص" نجد أنّ الغرض من قصص الأنبياء داود وسليمان وأيوب هو تسليّة النّبيّ عليه السّلام بينما الغرض من قصّة آدم التّحذير من الاستكبار والحسد الذي كان في إبليس؛

_ من مظاهر التّناسب القصصي في سورة "ص" أنّ القصص كانت نماذج لاختبارات مختلفة تعرّض لها كلّ شخصيّة من الأنبياء الثّلاثة أمّا في قصّة آدم فتوجّه الاختبار إلى إبليس اللّعين؛

_ دراسة القصص على ضوء وحدة النّسق من شأنه الوقوف على الرّوايات الصّحيحة واستبعاد غيرها خاصّة ما كان من الإسرائيليات؛

_ موضوع التّناسب ووحدة النّسق في السّورة الواحدة، لا يزال ميدانا خصبا ينبغي أن تتوجّه إليه جهود الباحثين.

هذا ما توصّل إليه الباحث من خلال هذه الدّراسة التي لا نزعم أنّها كاملة والكمال للّه خاصّة في هذه المواضيع التي يكون فيها لعنصر الاجتهاد والرّأي من قبل أهل الفنّ الأثر الكبير في صياغته، وللباحث كذلك دور الاجتهاد والمقاربة والتّرجيح، والله أعلم وأحكم، وصلّى الله على سيّدنا محمّد عليه أفضل الصّلاة والسّلام والحمد لله ربّ العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

أوّلا: القرآن الكريم برواية ورش.

ثانيا: كتب التّفسير وعلوم القرآن.

1. ابن عاشور محمّد الطّاهر التّونسي (ت: 1393هـ) التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنشر – تونس–ط: 1984هـ.

2. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: 774هـ) تفسير القرآن العظيم، تحق: محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلميّة – بيروت – ط:1، 1419هـ.

3. الألوسي شهاب الدّين محمود بن عبد الله (ت: 1270هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحق: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة– بيروت – ط:1، 1415هـ.

4. البقاعي إبراهيم بن عمر برهان الدّين (ت: 885هـ) نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: 1404هـ–1984م.

5. الرّازي فخر الدّين أبو عبد الله محمّد بن عمر بن الحسن (ت: 606هـ) مفاتيح الغيب، دار إحياء التّراث العربي – بيروت – ط:3، 1420هـ.

6. سعيد حوّى (ت: 1409هـ)، الأساس في التّفسير، دار السّلام – القاهرة– ط: 6، 1424 هـ.

7. سيد قطب إبراهيم حسين الشّاربي (1385هـ) في ظلال القرآن، دار إحياء التّراث العربي – بيروت–ط:7، 1391هـ – 1981م.

8. كعباش محمّد إبراهيم سعيد، نفحات الرّحمن في رياض القرآن، المطبعة العربيّة جمعيّة النّهضة، غرداية–الجزائر–ط: 1433هـ–2011م.

10. الزّركشي أبو عبد الله بدر الدّين محمّد بن عبد الله (ت: 794هـ) البرهان في علوم القرآن، تحق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط:1، 1376 هـ –1957م.

11. السّيوطي جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر،(ت: 911هـ) الإتقان في علوم القرآن، تحق: محمّد أبو الفضل إبراهيم،الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ط: 1394هـ/ 1974 م.

12. البيومي، محمّد رجب، (ت: 2011م) البيان القرآني، الدّار المصريّة اللبنانيّة القاهرة، ط:1، 2001م.

13. فضل حسن عباس (ت: 2011م) قصص القرآن الكريم، دار النّفائس–الأردن–ط:2، 1427هـ 2007–م.

14. أحمد نوفل، سورة يوسف دراسة تحليليّة، دار الفرقان، الأردن، ط: 1، 1409هـ 1989–م.

15. عباس عوض الله عباس، محاضرات في التّفسير الموضوعي، دار الفكر دمشق، ط:1، 2007م.

16. المثنى عبد الفتاح محمود، نظريّة السّياق القرآني، دار وائل للنشر، الأردن، ط: 1، 1429هـ– 2008م.

17. عمر علي حسان عرفان، دلالة أسماء السّور القرآنيّة على محاورها وموضوعاتها، مؤسسة الرّسالة ناشرون، دمشق – سوريا –ط:1، 1439هـ–2018م.

ثالثًا: كتب الحديث واللغة:

1. البخاري، محمّد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي (ت: 256ه) صحيح البخاري تحق: محمّد زهير بن ناصر النّاصر، دار طوق النّجاة، ط:1، 1422ه.

2. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النّيسابوري (ت: 261ه)، صحيح مسلم تحق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربي – بيروت–د س ط.

3. التّرمذي، محمّد بن عيسى بن سَوْرة (ت: 279ه) سنن التّرمذي، تحق: أحمد محمّد شاكر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر–ط:2، 1395 ه 1975–م.

4. ابن فارس أحمد بن زكرياء القزويني الرّازي، (ت: 395ه)، معجم مقاييس اللغة تحق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، د ط، 1399ه 1979–م.

5. ابن منظور محمّد بن مكرم الأفريقي المصري (ت:711ه) لسان العرب، دار صادر – بيروت–ط:3، 1414ه.

رابعا: مقالات

- رشيد الحمداوي، وحدة النّسق في السّورة القرآنيّة، مجلة الامام الشّاطبي للدراسات القرآنيّة، ع 3، 1428ه.

هوامش:

1– ابن فارس أحمد بن زكرياء القزويني الرّازي، (ت: 395ه)، معجم مقاييس اللغة، تحق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، د ط، 1399ه –1979م.، ج5، ص 442.

2 – ابن منظور محمّد بن مكرم الأفريقي المصري (ت:711ه) لسان العرب، دار صادر – بيروت–ط:3، 1414ه، ج1، ص 755–756.

3 – الزّركشي أبو عبد الله بدر الدّين (ت: 794ه) البرهان في علوم القرآن، تحق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط:1، 1376 ه 1957–م، ج1، ص 35.

4 – الزّركشي، المرجع نفسه، ج1، ص 35.

5 – الزّركشي، المرجع نفسه، ج1، ص 35.

6 – البقاعي إبراهيم بن عمر برهان الدّين (ت: 885ه) نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: 1404ه–1984م، ج1، ص 5.

7 – البقاعي، المرجع نفسه، ج1، ص 14.

8 – رشيد الحمداوي، وحدة النّسق في السّورة القرآنيّة، مجلة الامام الشّاطبي للدراسات القرآنيّة، ع 3، 1428ه، ص 139.

9- تطرّق الدّكتور محمّد رجب البيومي إلى هذه القضيّة وأنكر أن يكون هناك وحدة موضوعيّة في السّورة القرآنيّة ومعه عدد من الباحثين، مشيرا إلى أنّ القول بالوحدة الموضوعيّة ما هو إلى ضرب من التّكلّف خاض فيه الخائضون عن اجتهاد يخطئ ويصيب، وقال بأن تنوّع الأغراض في السّورة الواحدة موضع روعة وإعجاب وتأثّر وانجذاب. انظر: البيومي، محمّد رجب، البيان القرآني، الدّار المصريّة اللبنانيّة، القاهرة، ط:1 2001م ص 132-145.

10 - عباس عوض الله عباس، محاضرات في التّفسير الموضوعي، دار الفكر، دمشق ط:1، 2007م، ص 38.

11 - السّيوطي جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر، (ت: 911ه) الإتقان في علوم القرآن، تحق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ط: 1394ه/ 1974 م، ج1، ص 49.

12- السّيوطي، المرجع نفسه، ج1، ص 199.

13- ابن عاشور محمّد الطّاهر التّونسي (ت: 1393ه) التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنشر - تونس، -ط: 1984ه، ج23، ص 201.

14- الزّركشي، البرهان، ج1، ص 193.

15- أنظر: الزّركشي، البرهان، ج1، ص 169-170.

16 - انظر: أحمد نوفل، سورة يوسف دراسة تحليليّة، دار الفرقان، الأردن، ط: 1 1409ه - 1989م، ص 224.

17 - أخرجه التّرمذي، باب: ومن سورة "ص"، رقم: 3232، التّرمذي، محمّد بن عيسى بن سَوْرة (ت: 279ه) سنن التّرمذي، تحق: أحمد محمّد شاكر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر-ط:2، 1395 ه -1975م، ج5، ص 365-366.

18 - ابن عاشور، التّحرير، ج23، ص 202.

19 - ابن عاشور، التّحرير، ج23، ص 202.

20 - انظر: المثنى عبد الفتاح محمود، نظريّة السّياق القرآني، دار وائل للنشر، الأردن ط: 1، 1429ه-2008م، ص 305.

21 - انظر: سيد قطب إبراهيم حسين الشّاربي (1385ه) في ظلال القرآن، دار إحياء التّراث العربي -بيروت-ط:7، 1391ه - 1981م، ج 23، ص 76، ابن عاشور التّحرير، ج 23، ص 202.

22 - عمر علي حسان عرفان، دلالة أسماء السّور القرآنيّة على محاورها وموضوعاتها مؤسسة الرّسالة ناشرون، دمشق - سوريا -ط:1، 1439ه-2018م، ص 386.

23 - البقاعي، نظم الدّرر، ج 16، ص 321.

24 – الألوسي شهاب الدّين محمود بن عبد الله (ت: 1270هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحق: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة – بيروت – ط:1، 1415هـ، ج12، ص 154.

25 – سعيد حوّى (ت: 1409هـ)، الأساس في التّفسير، دار السّلام – القاهرة – ط: 6 1424 هـ، ج6، ص 4766.

26 – الألوسي، روح المعاني، ج12، ص 223.

27 – أنظر في تفصيل ما يتعلّق بالقصّة في: ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت: 774هـ) تفسير القرآن العظيم، تحق: محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلميّة،– بيروت– ط:1، 1419هـ، ج7، ص51. الألوسي، روح المعاني، ج12، ص 178. ابن عاشور، التّحرير، ج23، ص 232–236. كعباش محمّد إبراهيم سعيد، نفحات الرّحمن في رياض القرآن، المطبعة العربيّة، جمعيّة النّهضة، غرداية–الجزائر–ط: 1433هـ–2011م ج11، 452–457.

28 – فضل حسن عباس (ت: 2011م) قصص القرآن الكريم، دار النّفائس، –الأردن–ط:2، 1427هـ 2007–م، ص 645.

29 – ردّ الامام الرّازي على تلك الرّوايات ردّا منطقيّا موسّعا فليُراجع في موضعه، أنظر: الرّازي فخر الدّين أبو عبد الله محمّد بن عمر بن الحسن (ت: 606هـ) مفاتيح الغيب، دار إحياء التّراث العربي – بيروت – ط:3، 1420هـ، ج26، ص 377–380.

30–انظر البقاعي نظم الدّرر، ج16، ص 361 سيد قطب، الظّلال، ج23، ص96–97.

31 – ابن عاشور، التّحرير، ج23، ص 237.

32 – البقاعي، نظم الدّرر، ج23، ص 361.

33 – سيد قطب، الظّلال، ج23، ص 97.

34 – ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: 774هـ) تفسير القرآن العظيم، تحق: محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلميّة – بيروت – ط:1، 1419هـ، ج7، ص 60.

35 – أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب: الجهاد والسّير، باب: من طلب الولد للجهاد، رقم 2664، وأخرجه مسلم من حديثه أيضا، كتاب: الأيمان، باب: الاستثناء، رقم 1654.

36 – أنظر: فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص 654–655.

37 – الرّازي، مفاتيح الغيب، ج 26، ص 394.

38 – فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص 657.

39 – انظر: الرّازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص 392. كعباش، نفحات الرّحمان، ج 14 ص 496–497.

40 – ابن عاشور، التّحرير، ج 23، ص 242.

41 – أنظر: سيد قطب، الظّلال، ج23، ص 100–101.

42 – ابن عاشور، التّحرير، ج 23، ص 275.
43 – ابن عاشور، التّحرير، ج 23، ص 275.
44 – انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص 71 –72.
45 – أنظر: فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص 132–133.
46 – ابن عاشور، التّحرير، ج 23، ص 301.
47 – أنظر: البقاعي: نظم الدّرر، ج23، ص 421.
48 – البقاعي، نظم الدّرر، ج 23، ص 348–349.
49 – الرّازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص 396.
50 – انظر: ابن عاشور، التّحرير، ج 23، ص 301–302.
51 – سيد قطب، الظّلال، ج23، ص 93.
52 – الرّازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص 406.
53 – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص 70.